اللحن في العربيّة بين تأريخ النشأة ومحاولات الإصلاح

أ. علاء الدين رمضان السيد

في القرن السابع الميلادي، نشأت في العالم دولة عظيمة، انطلقت من شبه الجزيرة العربية، فانضوت تحت رايتها شعوبٌ كثيرة، ذات حضارات مزدهرة ومتنوعة، بعد أن صار الإسلام ديناً رغبت فيه أكثر الشعوب، تلك التي اتخذت اللغة العربية - فيما بعد - لغة لها(١).

وقد ظهرت اللهجات غير الفصيحة في العربية، من جراء هذا الاتساع، وانتشار اللغة خارج حدود شبه الجزيرة العربية محمولة بالإسلام وحاملة لقرآنه، وعلومه، وثقافته، ولاختلاط العرب بغيرهم من أبناء الأمم التي أسلمت وسعت لِتَعَلّم اللغة العربية، ومخالطة العرب في شبه جزيرتهم، كما سعى العربُ للعيش بين أبناء الأمم التي فتحت أبوابها للدين الجديد في بلادهم شرقًا وغربًا(٢).

ومع تقدم الزمن ازداد هذا الاتصال بالأعاجم بعد الإسلام في سائر الأمصار، وخالطوا أهلها، فنشأ أولادهم من السبايا يسمعون عجمةَ أمهاتهم وحواضنهم، بعد أن كان العرب، منذ جاهليتهم وحتى الدولة الأموية، يتكلمون العربية الصحيحة على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم، كما كانوا قليلي الاتصال بمن حولهم من الأعاجم، فقد كان بين الفرس وعرب الجزيرة، والروم وعرب الشام، شيء من الاتصال دعا إلى أن يدخل بعض هؤلاء الجزيرة العربية، وتعلموا شيئًا من اللُّغَة ونطقوها تقليدًا ومُحَاكاة لمن هم في ديارهم، إلى جانب هذا نجد أن اللُّغَةَ العربيَّة كما انتقلت إليها تلك اللغات، انتقلت هي إلى لغات مجاورة مثل القبطية، التي كانت من اللغات المؤثرة تأثيرًا مبكرًا في اللغة العربية؛ لأن القبط (بمصر) من المجتمعات التي جاورت العرب، حيث إن «المدن القبطية، في مصر العليا، نصف عربية، منذ زمن (استرابون)، وحتى القرن الأول الميلادي»(٣).

وقد نشأ عن هذا الجوار تسرب الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، فنشأ الفساد في اللغة، وظهر اللحن بين بعض العرب(٤)، بل إنَّني أستطيع - متكئًا على نصٍ صريحٍ لابن خلدون ـ أن أُقَرِّرَ أن الفساد كان منتشريًا في بعض اللهجات العربية الفصحى بمقارنتها بلغة قريش التي هي أفصح لهجات العربية وأقومها، والتي اختارها الله لهذا السبب حتى تكون هي اللغة المشتركة للعرب والمسلمين، ولغة قرآنه الحكيم . . يقول ابن خلدون: «كانت لغة (لهجة) قريش أفصح اللغات (اللهجات) العربية وأصرحها (أفصحها وأوضحها) لبُعْدِها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، فصانها بُعْدُها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم، حتى إن سائر العرب، على نسبة بُعْدهم من قريش، كان الاحتجاج بلغتهم، في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية»(٥).

ولقد الْتَفَتَ الرسولُ الحكيم (ﷺ) إلى اللحن وأخطاره، واستَنَّ صحابَتُهُ، وخلفاؤه الراشدون ـ رضوان الله عليهم ـ سُنَّته في استهجان اللحن، ومقت اللحانين، ومن ذلك ما يروى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال ـ حين لحن رجل في حضرته ـ (أرشدوا صاحبكم، فقد ضل).

ومن ناحية أخرى أقام النبيُّ الأُميُّ المعلّم اتزانًا حصيفًا حينما قال: «لَعَنَ الله البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة» فهو يحارب التشدق، والتحذلق، والتنطع في القول، وفي هذين الأثرين يكمن السر الذي به حياة اللغة وازدهارها، فلا هي ملحونة، ولا هي مُتَقَعِّرة متحذلقة جوفاء.. متكلفة.

وحين فشا اللحن مع بداية العصر العباسي جعل العلماء منه نهاية لعصر الاحتجاج، وهذا يدلنا على أن اللهجة الملحونة بدأت تتشكل معالمها، وتأخذ لها بعض الملامح الملموسة مع هذا العصر(٦).

وللدكتور شوقي ضيف، تصريح ـ ضمني ـ بأن العرب كان لهم في الجاهلية مستويان للغة:

الأول: المستوى الجمعي، أو اللغة الأدبية الموحدة، وهي لغة قريش، والتي نزل بها القرآن الكريم.

الثاني: تُمَثّله لغات القبائل المختلفة في اليمامة والبحرين، وحمير، واليمن(٧).

حتى إن المستوى الجمعي (اللغة المشتركة) كان داخل إطاره الإنتاجي، يتشعب إلى مستويين للأداء اللغوي، فشعراء البدو، كان شعرهم قاسي اللفظ، صعب المخرج، يتدثونه من الشاعر ـ من حيث كونه مَنْشُوبًا إلى بيئته التي يعايشها، وصروفها وظروفها، فلما يلجؤون إلى وصف دواخلهم

بانفعال وجداني حساس، وإن فعلوا . . فعلى عجل دون اهتمام، أو إدراك لما تخلقه الطاقة النفسية من حيوية للعمل الإبداعي، إذ تحول غلظة مجتمعهم دون تحقيق نوع من الرقة واليسر في ألفاظهم، وهناك شعراء الحضر، وشعرهم أرق لفظًا، وأيسر مخرجًا، وأقرب معنى ودلالة من شعر البدو، فلكلٍّ بيئة أثرها على اللغة من حيث مناخها، وجغرافيتها، ومن حيث طبيعة المتكلمين ومستواهم الثقافي والبيئي⁽⁸⁾.

وإننا نرى أن أَهَمَّ أسباب ظهور اللحن في اللغة العربية، وتَفَشِّيه، أن العرب كانوا منعزلين في جزيرتهم عن الأمم ذات الحضارة ـ زمنئذ ـ كالفرس والروم (بِغَضِّ النَّظَر عن صِلات المناذرة والغساسنة)، ولذلك ظَلَّ اللحن محاصرًا، ومقصورًا على أولئك الذين تمكنوا من عقد صلات ثقافية فردية مع الحضارات المجاورة، فطغت عليهم لغتهم، وتراكيبهم، وحدوث اللحن في مثل هذه الحالات إنما يكون عن عدم إدراك، بحيث يسبق اللسان، وسرعان ما يواري تسرعه، ويتدارك خطأه، ويستعيد توازنه؛ مثل هذه الحالات تكون قليلة جدًا، تكاد تنعدم النسبة بينها وبين أولئك الذين خرجوا إلى ثقافات الحضارات الأخرى، وأخذوا عنها، وظلَّت لهم لغتهم وفصاحتهم مثل (النضر بن الحارث).

فإن أول ما ظهر من اللحن كان عند قومٍ طارئين على العرب من الموالي والمتعربين، من الفرس والترك وغيرهم، في الأطراف البعيدة للدولة الإسلامية، كان الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ = ٨٣٣ ـ ٨٤٢م)، والذي كانت أمه تركية تسمى «ماردة»⁽⁹⁾، هو أول من اتخذ من الترك جندًا له، ليتخلَّص بواسطتهم من سيطرة العنصرين العربيّ والفارسي على أمور الدولة، وقد اعْتَزَّ المعتصم كثيرًا بحماية الترك، وَيَدُلُّ على ذلك بيتان له قال فيهما:

قرِّب النحام واعْجِل يا غُلام
واطرح السرج عليه واللُّجام
اعلم الأتراك أني خائض
لُجَّة الموت، فمن شاء أقام(١٠)

ومنذ ذلك الحين بدأ عصر السيطرة التركية على أمور الدولة العباسية، مما كان له أثره البالغ على اللغة التركية والاهتمام بها، وقد برزت أسماء قُوَّاد الترك من أمثال: أشناس، ووصيف، وابن طولون، وباغر(١١)، وبُغَا، وتُوزُون، وسِيماً الشرابي، وغيرهم كثير(١٢).

وقد كان خطر الترك على اللغة العربية أشد من خطر الفرس وغيرهم عليها، وذلك لأسباب عديدة منها سيطرتهم على الحكم ومقاليد الأمور في الدولة الإسلامية، ولاعتزازهم بلغتهم وأصولهم، واعتزاز الحكام العرب المنتسبين إلى الترك من ناحية أمهاتهم بهذه الأصول، وكانت لهم عجمة يخاطبون بها الناس في كل يوم حتى تَأَثَّرَ بهم المجتمع، وصَدَقَ أبو الطيب المتنبي حينما قال:

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ
أَحْدَثُ شيْءٍ عَهْدًا بِهَا القِدَمُ
وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ، وَمَا
تُفْلِحُ عَرَبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لاَ أَدَبٌ عِنْدَهُم وَلاَ حَسَبٌ
وَلاَ عُهُودٌ لَهُمْ وَلاَ ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتَهَا أُمَمٌ
تُرْعَى بِعَبْدٍ، كَأَنَّهَا غَنَمُ(١٣)

ولقد تَعَرَّضَ «الخَبَّازُ البلدي»، أبو بكر بن أحمد بن حمدان (من أهل القرن الرابع الهجري) لعُجْمَةِ الترك في وصفه لساقية، حيث يقول:

مُزَمْزِمٌ مَا يَبِينُ مَنْطِقُهُ

كَقَائِدِ التُّرْكِ غَدْوَةَ الشَّغَبِ(١٤)

ومنذُ القرن الخامِسِ الهجري، أو منذ عصر الدويلات، بدأ في المشرق الإسلامي استعمال الفارسية، كما دخل كثير من الألفاظ التركية، من قبل، وحفلت بها اللغة العربية، وبلغ الأمر أن انقسمت لغة التخاطب، ولأول مرة في تاريخ اللغة العربية، فكانت لغة تخاطب الخاصة من الخلفاء والرؤساء والعلماء في المشرق وسطًا بين الفصيحة واللَّهَجِيَّة المعاصرة لِقِلَّة أخذهم باللغة الفصيحة من صغرهم، إذ كان القَيِّم على الخليفة، وأهل بيته، من الترك، أو الديلم، أو النساء: وأكثرهن من السبايا الأعاجم من حواري القصر، ولأن أكثر الرؤساء كانوا من الأعاجم الذين لم يغلبوا على السلطان إلا بالقوة والاغتصاب، لا بعلم، ولا حسن تربية ودين(١٥).

أما لغة تخاطب العامة، فكانت هي اللغات الأعجمية الوطنية في تلك الأرجاء، وأهمها الفارسية الحديثة، وذلك لانقراض العناصر العربية من العامة السامانية باندماجها في غيرها، وفشو الجهل بينها، وامتدت هذه العجمة حتى قاربت من حدود بغداد، ولأبي الطيب المتنبي قصيدة في شعب «بُوان» بشيراز، ذُكر فيها ذلك، حينما قصد عضد الدولة البويهي بفارس، فما إن زايل بغداد حتى وقع في عجمة لا إفصاح معها، ومن هذه القصيدة قوله:

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيبًا في المَغَانِي

بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

وَلَكِنَّ الفَتَىٰ العَرَبِيَّ فِيها
غَرِيب الْوَجْهِ، واليد، واللِّسانِ
مَلاَعِب جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا
سُلَيْمَان لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ(١٦)

بل إن عَياء الألسن انتشر في الحواضر العربية حتى مُدِح من ظلَّ منهم على فصاحته، وقد مُدِح ابن العميد لفصاحَتِهِ، في وقتٍ لم تَعُد الفصاحة أمرًا عاديًا فيه، كما كانت بالماضي:

بِأَبِي وَأُمِّي نَاطِقٌ، فِي لَفْظِهِ
ثَمَنٌ تُبَاعُ بِهِ القُلُوبُ وَتُشْتَرَىٰ
قَطَفَ الرِّجَالُ القَوْلَ وَقْتَ نَبَاتِهِ
وَقَطَفْتَ أَنْتَ القَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا
فَهُوَ المُشَيَّعُ بِالمَسَامِعِ إِنْ مَضَىٰ
وَهُوَ المُضَاعفُ حُسْنُهُ إِنْ كُرِّرَا(١٧)

وما بقي من ولايات العرب سوى منطقةِ (تِهامة) التي ظلَّت حتَّى أوائل القرن السادس الهجري تستخدم الفصحىٰ في لغتها اليومِيَّة، حتَّى أنَّ (شبه الجزيرة العربية) نفسها، ظلت السيادة للغة الفصيحة فيها إلى أواخر القرن الرابع وبداية الخامس الهجريين، هذا بالنسبة للبدو، أما الحواضر في الجزيرة مثل مكة والمدينة، فقد تَسَرَّبَ إليها فساد اللسان من جَرَّاء الاختلاط بالأعاجم، وخاصَّة في موسم الحج، وأيضا إقليم «صَحَار» من البادية صار تخاطُب أهله بالفارسية، وذلك علىٰ الرغم من أنه كان مقصدًا لأدباء العربيَّة، حيث يعقد فيه سوقٌ علىٰ غِرَارِ سوق عُكَاظ، في الجاهليَّة وكان لهذا السوق أهمية أدبية كبيرة عند العرب، وان أكثر أهل جدة وعدن - زمنئذٍ - فرسٌ إلا أن اللسان عربيٌ عَيِيٌ.

ولقد شاعت أيضًا منذ العصر العباسي الثاني اللهجات في ممالك المغرب، وكان لهذه اللهجات آدابها التي تشيع في تلك المنطقة، غير أن هذه اللهجة كانت قريبة من الفصحى قربًا شديدًا.

ونحن نؤكِّد ههنا أنَّهُ على الرَّغمِ من اختِلاطِ العَرَبِ بالأُمَمِ المُجَاورة لهم أيام الفتوحات الإسلامية، من الفرس والروم والأحباش . . . ، إلا أن اللحن بقي قليلا، وخاصة أيام الدولة الأموية المتعصبة للعربية، ولكنه انتشر كثيرًا في عهد الدولة العَبَّاسية التي أشْرَكَتْ الفُرْسَ والتركَ في الحكومة ـ كما سبق لنا القول ــ وقد يكون لهذه المشاركة أثرها في انتشار اللهجات ـ (العامية) ـ الجغرافية، وظهور «الشعر اللهجي»، وقد وصلتنا من هذا الشعر نصوصٌ ترجع إلى العصر العباسي، وبالتحديد في خلافة المعتصم بن الرشيد، الذي قال شعرًا لفظه ملحون:

الكَلْبُ كَانْ يُعْرُجْ   يُوم الَّذِي بِه بَعَثْت
لَوْ كَانْ جاء مُجَبّرْ   اجْبُرْ رِجْل كَلْب انْت

وكان هذا رَدّه علىٰ (أشناس) عندما بعث إليه بكلبٍ أعرج، عندما طلب منه كلبًا للصيد، فبعثه إليه، وبعد أن أعاد المعتصم الكلب، نظرًا لعرجه، قال أشناس:

الْكَلْبُ اخَذْتَ جَيُّدْ   مَكْسُورْ رِجْلٍ جِبْت
رُدّ جَيِّدْ كَلْب   كَمَا كُنْت اخَذْت

هنا تَظْهَرُ مُحَاولة المُعْتَصِم تقليد قائِده (أشناس التركي)، ولا غرو في ذلك، حيث إن المعتصم ورث عن أُمِّه كثيرًا من طِباع التُّرْك مِمَّا جَعَل في نفسه ميلاً إليهم، وقد دعته العَصَبِيَّة التركية إلى التشبُّه التام بِقُوّاده وأصوله

منهم، بعد ذلك انتشر اللحن انتشارًا كبيرًا، لا في الأطراف البعيدة للدولة العربية فحسب، بل حتَّىٰ في شبه الجزيرة العربية نفسها - كما سبق -[١٨].

لقد كانت حياة المجتمع الإسلامي في عصر الدويلات مُعَقَّدَة الملامح، مُتَشَابِكَة الاتِّجَاهَات، مُخْتَلفة الأَجْنَاس واللَّهَجَات، فقد كان المجتمع خليطًا من الفرس والأتراك والزنوج والروم والبربر والهنود. . إلخ. وقد بدأت اللهجية - بواسطة هؤلاء - كظاهرة لحنية في اللغة العربية من خلال إسقاط العلامات النحوية مع عدم الاهتمام بالتركيب الأدائي للجملة، مما أحدث نوعًا من الاختلال في منهج الترتيب اللفظي، تَطَوَّر فيما بعد إلى جَعْل الجُمْلَة عبارة عن مجموعة من الألفاظ المُنْفَصِلة تماما عن بعضها البعض، في شكل تركيب بِدَائِي للعبارة.

وإن كانت هذه اللهجات (أو اللحن، إذْ لَمْ تَكُنْ هُنَاك لَهْجَة ملحونة بالمعنى المكتمل) بدأت مع التحام العرب بعناصر غير عربية، في ظل حكومات ذات تَسَاهُل انتمائي كما حدث في عهد المعتصم بن الرشيد - وأشرنا إليه - إلا أنني أَعْتَبِر أن التَّأْرِيخ الحَقِيقيّ، والضوء الأخضر الذي لُوِّحَ به إلى هذه اللهجات لِتَنْطَلِقَ نحو الاكتمال والتَّخَصُّص، وخلق ملامحها المميزة، كان زمن تقسيم الدولة الإسلامية إلى دويلات، أي منذ القرن الرابع الهجري، حيث تَقَلَّصَت حُدُودُ حُكْم الخُلَفَاء العَبَّاسِيِّين، وبدأ عهد اضطراب في إيران وبغداد اللتين كانتا تحت حُكْم الأُسر الإيرانية أولاً، ثم صارتا إلى الأُسر التركية[١٩]، حيث كانت أول الأمر فارس بيد عماد الدولة أبي الحسن ابن بويه (٣٢٠-٣٣٨هـ)، والرس وأصبهان وبلاد الجبل بيد ركن الدولة الحسين بن بويه (٣٢٠- ٣٥٨هـ) والعراق والأهواز بيد معز الدولة أحمد بن بويه (٣٢٠-٣٥٦هـ)، وقد أقام نصر بن أحمد الساماني في

خراسان، الدولة السامانية، وقد عمل السامانيون (٢٦٣ـ٨ ٣٦هـ = ٨٧٥ـ٩٩٦م) على انتشار الأدب الفارسي، وقد انتقل الحكم في خراسان وفي تركستان التي كان قسم منها بيد المسلمين من حكم الطاهريين (٢٠٥ـ٢٦٠هـ = ٨٢١ـ٨٧٣م) إلى حكمهم، وكانت اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية في أيام هؤلاء الحكام أيضا⁽٢٠⁾.

وبينما اتجهت بعض هذه المناطق للحديث بلغاتها القديمة التي كانت قبل دخولها الإسلام مثل فارس وخراسان، بقيت هناك بعض المناطق تتحدث العربية بلكنات لسانهم، على أن هناك مناطق ثالثة احتفظت بالعربية الفصيحة قوية لمدة من الزمن ـ على النحو الذي بيَّنَّاه ـ.

بعدئذٍ ظَهَرَتْ مشكلة ازْدِوَاج اللغة العربية واختلاف الناطقين بها، بين اللغة الفصيحة السليمة، وتلك التي دخلها التحريف واللحن، وكثير من ألفاظ لغات الأمم الإسلامية غير العربية، لكن.. المشكلة لم تكن محتدمة جدًا للحد الذي يمكن أن نتصوره؛ لأن الفصحى ظلَّت لغة العلم، والتدوين، والأدب، وسائر ألوان الثقافة، وقد استعانت الأجناس غير العربية بقواعد النحو لتضمن للغتها العربية الرسمية سلامتها، على الأقل عندما يكتبون ويُدَوِّنون، ممَّا حَدَّ من خطورة اللكنة والإفساد اللغوي عن طريقهم، واقتصر العامية بين هؤلاء ـ غير العرب ـ على كونها لغة تخاطب وحديث يومي في أمور العيش والحياة، غير الأدب والعلم، ولم يظهر لها شأن يُذْكر حتى في عهود ضعف اللغة، وفي العصرين المملوكي والعثماني؛ لأن الفصحى ظلت اللغة الرسمية للعلوم والفنون والآداب، وما دُوِّنَ باللغة غير الفصيحة (اللهجية) لم يعترف به الكثيرون من المثقفين والعلماء، وكل ما لوحظ على اللغة في هذين العصرين ضعف عام في التأليف والأسلوب،

وإذا كانت بعض الألفاظ اللهجية قد تخللت بعض المؤلفات كما نجد في «خُطط المقريزي»، إلا أن السمة العربية السليمة كانت هي الغالبة(٢١).

وجُمْلَة القول أن اللهجة الملحونة في العربية نشأت تدريجيًا مع تَغَيُّر الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تعاقبت على الأُمّة العربية بعد ظهور الإسلام، ودخول غير العرب تحت رايته واعتناق شرائعه وعقيدته، وهذه اللهجة الملحونة ما هي في حقيقتها إلا انحراف في لسان العرب، أصابه من جراء عوامل شتَّى:

أهمّ هذه العوامل وأوَّلها: اختلاط العرب اختلاطًا مُبَاشِرًا، وقوي التأثير، بسواهم من الأمم التي بسط الإسلام ظله على ممالكها فدانوا لقائدها، وانتهجوا شريعته، فاختلطوا ــ بعد إسلامهم ـ بإخوانهم العرب بالمُسَاكنة والمُشَاركة والتَّزَاوج.. وغير ذلك من ميادين الامْتِزَاج ومن العوامل المُهِمَّة أيضًا، ضعف العرب سياسيًا واجتماعيًا، وملك الأعاجم نواصي شؤون الحياة فيهم، وهذا العامل ظهر بقوةٍ مع أحريات الدولة العباسية(٢٢).

وعلى أية حال فإنَّنَا نُوَضِّح أنَّ اللهجة من العَوامل الصِّحِّيَّة في اللغات الإنسانية، وقد كانت موجودة في اللغة العربية قبل مطلع التأريخ لها ـ واستمرت فيها بعد ــ غير أنَّ حاميي اللغة كانوا يُطْلِقُون على هذه اللهجات اسم (لغات)، وإن مَبَاحث علم مثل (فقه اللغة) ـ الفيلولوجيا ـ يُوَضِّح لنا أثر هذه اللهجات في التقعيد التركيبي للغة، فظهرت المشتركات اللفظية والمترادفات. وغيرها، وكانت هذه اللهجات آدابها التي تعبر عن خصائصها وتبرز أهم ملامحها، بل إن الأمر قد يذهب موغلا لحد أبعد من هذا، فابن سلام نقل عن «أبي عمرو بن العلاء» قوله: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بِعَرَبِيَّتَنَا»، وقد جعل بعض المحدثين

من هذه الرواية مُتَّكَأً ليفصلوا بين القحطانيين والعدنانيين في اللغة، منكرين على أهل الجنوب (القحطانيين) العربية، كلغة لهم، لكنهم لم يَتَنَبَّهُوا إلى قول ابن العلاء، ولا عَرَبِيَّتهم، أي أنهم يتكلمون العربية غير أن الاختلاف بينهم في الحديث بها من حيث مخارج الألفاظ ودلالات بعض المعاني، وأصوات هذه الكلمات، وجملة هذه الاختلافات إنما هي اختلافات شكلية تتحكم في معظمها جغرافية المكان وطبيعته، وطبيعة الحياة التي تعيشها هذه النماذج اللغوية المتحدثة بتلك اللغة، ويدلنا على ذلك ما قيل من أن «أبا الهميع» الشاعر كان من (أعراب) مدين ـ شديد الغرابة في اللفظ ـ، وكُنَّا لا نكاد نفهم كلامه، ومن شعر أبي الهميع قوله.

مِنْ طَمْحَةٍ صَبِيرُهَا جُحْلُنْجُعِ
لَمْ يُحْطِهَا الجَذْوَلُ بِالتَّنُّوعِ(٢٣)

فقد انْفَصَمَتْ عُرى اللهجيّة لأوّل مرة عن اللغة الأم في (تأليف الكلام على معاني النحو) ـ كما يقول الجرجاني ـ وفي طريقة نطق الأصوات، وعندما اختلط اللسان العربي بجمهرة متنوعة ومتباينة من اللغات التي تنتمي إلى الأُسْرَةِ السامية، وأخرى إلى الهندو ـ أُورُوبِّيَّة.. وغيرهما، واستمرّت سُنَّة المجتمع في إفساح جانب من إبداع الأدباء والشعراء للتعبير عن هذه المجتمعات بلهجاتها، وكل مالنا أن نطمح إليه ونطمع فيه هو الرقي بهذه اللهجات المعاصرة، حتى نصل مرة أخرى لعصر يُشْبِه في رُقِيِّه الفِكْرِي عصر اللهجة السليمة التي لا يشوبها فساد اللحن، والدكتور «طه حسين» من أولئك الذين لا يشكّون ـ بحال من الأحوال ـ في أن «يوما من الأيام غير بعيد.. سيأتي، وقد عادت الحياة القومية إلى هذه اللغة، وأصبحت ليست لغة المثقفين فحسب، ولا لغة الأدب فحسب، لكنها لغة المثقفين، ولغة الأدب التي يفهمها الشعب كله»(٢٤).

وما علينا إلا أن نتعامل مع هذه اللهجات على أساس واحد، وهو قيمتها الأدبية والوحدانية لقربها من العامة، ورغبة في تقويمها وتقوية الصالح منها والارتقاء بها، فإن اللهجة الحيَّة لديها «قدرة على التعبير - في بعض الأحيان - عن ظلال من المعاني والأحاسيس التي قد لا تستطيع الفصحى التعبير عنها بنفس الدقة والإيجاز»⁽²⁵⁾.

لذلك اهتم النقاد الأولون بالتأكيد على رواية آداب اللهجة ومُلَحِها بما هي عليه صوتيًا ونحويًا وعدم التدخل فيها بالإصلاح وَرَدّها إلى اللغة الفصحى؛ لأن الإعراب فيها يسلب الحديث حسنه الذي يُبنى على أساس، منه الإعراب في عيبه؛ فنرى الجاحظ يحذِّرنا من ذلك قائلاً: «إذا سَمِعْتَ بِنَادِرَةٍ مِنْ نَوَادِرِ العَوَامِ، ومُلْحَةٍ مِنْ مُلَحِ الحَشْوَةِ والطَّغَام، فإيَّاك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظًا حسنًا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أُرِيدَتْ لَهُ ويُذْهِبُ اسْتِطَابَتهم إياها واستملاحهم لَهَا»⁽²⁶⁾.

لكنَّ الأمر يجبُ ألَّا يبقى على إطلاقه مِنْ حَيْثُ التسليم الكامل لهذه اللهجات، بل يجب أن نشْرع في تنفيذ مشروعنا القومي الكبير الذي يُعَبّر عنه علي أحمد باكثير حيث يرى أن نأخذ من الفصحى مُفْرَدَاتها وإعرابها وسائر خصائصها الحية، ومن اللهجة أسلوبها وبلاغتها الخاصة من حيث التقدم والتأخر، ومرونتها. . .، وبذلك تكون لدينا لغة حية متطورة تحفل بالألوان والظلال الخاصة بكل بلد عربي على حدة، ولكنها مفهومة لجميع الشعوب العربية، ولقراء العربية في كل مكان.

ولعل أصدق مثال لذلك في القديم ما نجده في شعر (البهاء زهير) من روح اللغة الدارجة المصرية في عصره، ومع ذلك فهو فصيح جار على قواعد

الأدب(٢٧)، وجمهرة من كُتّاب العربية لا يشكُّون بحال من الأحوال في أن يومًا من الأيام سنعود إلى سلامة اللغة، هذه العودة الماجدة يجب أن تمر بمرحلة من التأهب لها من خلال دفع الفصحى نحو اليسر والسهولة، واللهجة نحو اللغة الفصحى ورقيها، في سبيل هذه المرحلة قدم (فَرَح أنطون) تصَوّرًا للُّغةِ الاجتماعية التي تُعَبّر عن طبقات المجتمع في رواياته، هذا التَّصَوّر يقدم الصورة النموذجية لما نطمح إليه، فقد قسم اللغة داخل المجتمع إلى ثلاثة أقسام(٢٨):

أولاً: جعل الفصحى للطبقات العليا من المجتمع؛ لأنها هي التي وافقت حَظًا من العلم والتأديب والتربية والمعارف الواسعة.

ثانيًا: جعل العامية المطلقة للطبقات الدُّنيا ـ (ثقافيًا) ـ.

ثالثًا: دعا إلى لغةٍ ثالثة، عوان بين ذلك، وأطلق عليها وصف (الفصحى المُخفّفة، والعامية المُثقّفة)(٢٩)

فهذا طرف من آراء حركة الإصلاح اللغوي العربية، والتي واكبتْ الحركات الإصلاحيّة اللُّغويّة التي اتَّسمَ بها هذا العصر قاصدة العربية، من أهلها وغير أهلها، لكن هذه الحركات لم تكن تعمل في اتجاه واحد، مقصده الإصلاح الفعلي للغة العربية(٣٠)، أو أن هؤلاء المصلحين لا يدركون أبعاد المشكلة التي تَصدّوا لحلها، فحينما انطلقت الحركات الإصلاحية اللغوية كانت معتمدة على نظرات قاصرة ورؤى شوهاء مبعثرة، فمنهم من قال: نعيد إصلاح النحو بتيسيره، وهذا هو الاتِّجاه الوحيد الذي كانت نظرته صائبة إلى حد ما، إذ أصابت بعض التوفيق ـ القليل ـ(٣١).

وهناك من قال نكتب العربية بالحروف اللاتينية، وهذا إضلال وبغي استعماري، ومنهم من اتَّجه نحو تيسير الكتابة والهجاء العربي، وغيرهم..

ممن ضَلّوا عن اللفظ والمدلول باعتبارهما الأقرب، من الطرق الواصلة ما بين اللغة واللهجة، والأغنَى ببذل الجهد والدراسة، فالخطب كل الخطب لا يكمن في الجانب النحوي أو المعجمي، وإنما هناك ما هو أجَلّ من ذلك وأخطر، فمادة اللغة وألفاظها ودلالاتها، وما قد حدث من تفاوت كبير بينها وبين العامية، هو أجدر شيء بالبحث والنظر، وإلى جانب دراسة أخرى تهتم بما عليه آداب وفنون هذه اللهجات وتوجيهها نحو الفصحى ومحاولة الارتقاء بالألفاظ الفنية التي من شأنها أن تشيع في اللسان الشعبي(٣٢).

وإننا نشير ههنا بشيء من الاهتمام إلى خطر آخر يضرب اللهجة من داخلها كبنية، ومن ثَمَّ اللغة، هذا الخطر هو تطور اللهجات العربية في معزل عن بعضها البعض، فإن ذلك يباعد الشقة بينها وبين اللهجات الأخرى من ناحية، وبينها وبين اللغة الأم من ناحية أخرى، والمثال على ذلك ما ذكره السيد (سَلْمَان الزَّمُّوري) - مغربي - مِنْ أَنَّ أَهْل الجنوب في المغرب يتكلمون لغة (لهجة) يستحيل على أهل الشمال في تطوان وطنجة والدار البيضاء فهمها(٣٣)، الأمر نفسه يتحقق معنا عند لقاء نماذج لهجية من جنوب السودان مثلاً، فنحن بذلك - بتنمية اللهجات في معزل عن بعضها البعض - إنما نؤكد على الفواصل المصطنعة بين الحدود الإقليمية للعالم العربي من جانب، والحدود الإدارية داخل الإقليم الواحد من جانب آخر، الأمر الذي ينتهي بها إلى الضعف والتدهور بعد أن انقسم الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة معظمها يُعَاني من الوهن والاختناق، وهذا ما يهرع خلفه، ويعمل عليه، بل ويرجوه الاستعمار في صورته الحاليَّة (الاستعمار الثقافي)، ويساعد على تحقيقه بشتى الوسائل، وأرجو ألاَّ يُجَانِبني الصواب إذا قُلْت أن من بين الوسائل الاستعمارية لهدم اللغة العربية هي الدعوة المباشرة إلى العودة الكاملة إلى اللغة العربية الفصحى في الاستخدامات

اليومية والديوانية(٣٤)؛ لأن هذا إذا حدث، فمن شأنه أن يحدث هوَّة كبيرة وَرِدَّة خانقة ستقضي على اللغة وتعيدنا بشكلٍ كاملٍ وقاطع إلى اللهجة لنستخدمها كلغة غير منتمية إلى أيَّة تنظيمات لغوية أُخرى تنسقها، وتعود اللغة إلى مراحِلِها الأُولى ثُمَّ تَتَقَوْقَع لتصير ـ وفقط ـ لغة للنصوص الدينية، وساعتها.. لا يبقى من الدين إلا اسمه، ومن العلم إلا درسه، ومن القرآن إلا رسمه ـ والعياذ بالله، فحَاشاهم ما هم إليه يهطعون ـ، وذلك لأن هذا الموضوع، لا يقبل الفصل دفعة واحدة ـ وهكذا ـ بل إنه قد يمضي من الزمن ما شاء أن يمضي، ثم يتركه بغير حلٍ حاسم(٣٥)

وطبيعي أن نتَّجه نحو اللغة الأم من خلال إيجاد لهجات وسيطة يفهمها الإقليميون العرب جميعًا، ويتضاءل عددها حتى تصل إلى اللغة الأم، فيما بعد، لتكون هي لغة الحوار والمخاطبة، فاللغة العربية الفصيحة يجب أن تكون بالنسبة لنا «حركة تَقَدُّمِيَّة؛ لأن اللهجية انحصار وتضييق وانطواء على الذاتِ لا يُنَاسب العصر الحديث الذي ينزع للتوسُّع والتَّكَتُّل والانتشار الإنساني»(٣٦)، فعامل التوزيع والاختلاف في تكوين اللهجات يقابله عامل آخر يساويه أو يفوقه في بعض المراحل، وهو عامل الضم والتسوية.. إن (مرونة) الفصحى يُقَابلها عامل آخر هو ارتفاع العامية إلى الفصحى(٣٧)، كلما تَوَحَّدَت القراءة، وتَوَحَّد الاستماع إلى مصدر واحد، أو أن يكون مصدر التثقيف والقراءة هو نبع واحد، فجنوح اللهجات إلى التفرق يكون عند انقسام الأمم، فيما مضى، يتبعه جنوحها نحو التوافق والتقارب عند تلاقيها وائتلافها في نطاق الجامعات وما يشبهها من الهيئات القَوْمِيَّة(٣٨).

ونحن هنا ندعو إلى الاتّجاه باللهجات العربيّة المُعَاصِرة نحو الفصحى، لكن.. مع رفضنا القاطع أن تَتَدَنّى الفصحى نحو العامية، غير أننا نوافق على تنقيتها وسلاستها، هذا الاتجاه سيمر بمرحلة وُسْطَى هي التقريب بينهما، هذا التقريب ــ وهو ما ندعو إليه الآن ــ يتمثل في أن يترك كُتَّاب الفصحى التَّقَعُّرَ مع الامتناع عن استعمال أي لفظ يجري على ألسنة العامة إلا إذا كان عربيًا أصيلاً، وفي الوقت نفسه، يُجْرِي أصحاب اللهجة ترقية للهجتهم حتى يرتفعون بها إلى مستوى قريب من الفصحى، تُخْتَار فيه الألفاظ بِدِقّة، فلا يستعمل فيها لفظ غير فصيح ما دام الفصيح موجودًا ــ وبكثرة، كما هو الحال ــ ويسهل نطقه على العامة، وعند الضرورة لا مانع من إدخال لفظ غير عربي وتطويعه للنطق السليم، وإخضاعه لنظم التأليف والأسلوب الفصيح(٣٩).

وعلى هذا.. فإن مسؤولية إعادة إحياء اللغة تقع على عاتق الأدباء قبل غيرهم.. حتى قبل المعجميين أنفسهم(٤٠)، ونجد ثَمَّةَ قانونًا أرساه سَيّدنا الفاروقُ عمر بن الخَطَّاب ــ رضي الله عنه ــ يُحَدِّدُ من خلاله علاقة الأديب باللغة وشكل هذه العلاقة؛ حينما ذُكِرَ له زهير بن أبي سُلمى، قال ــ وهو الناقد الحصيف ــ «كان لا يُعَاظل بين القول، ولا يَسْتَعْمِلُ وَحْشِيَّ الألفاظ في شعر، ولا يمدحُ الرَّجُلَ إلاَّ بِمَا فيه» ــ أي كان موضوعيا ــ(٤١).

فنحن الآن ــ حتى ولو جاءنا تاريخُ العربيّة خلوا من المظاهر اللهجية ــ قد تَمَكَّنَت اللهجاتُ من المجتمعات العربية، ليس هذا فقط، بل إن هذه اللهجات ملحونة في كثير منها، فيجب أن نشغل بالنا بها، وأن ندخلَ إلى دهاليزها، وأن نَهْتَمَّ بتطوير الفصحى، والملاءمة بينها وبين ظروف الحياة الراهنة في الوطن العربي، حتى نكتسب مرونة وَجِدَّة وانطلاقًا، فلقد أُصْبَحَ البُعْدُ شاسِعًا والهُوَّة سحيقة ما بين الفصحى وبين اللهجات العربية

الحديثة، التي قد تَطَوَّرَتْ مَعَ الزَّمَن في بنائها، وأثَّرت فيها مؤثرات كثيرة باعدت بينها وبين أصلها العربي(٤٢). . فمن واجبنا الآن الإسهام في تصحيح هذا الوضع، والذي يَتَطَلَّب مِنَّا قَبْل كل شيء أن نَتَوافَرَ على دراسة اللهجات دراسة فاحصة، وأن تتضافر جهودنا في سبيل هذه الدراسات (بما في ذلك دراسة أدب تلك اللهجات وفنونها) قبل أن نطمع في شيء من الإصلاح المنشود، وعلينا أن نرفع الستار الموهوم بين الكثير من كلماتها، وألا نتجافى عن استخدام الكلمات الفصيحة لورودها على ألسنة العامة، بل علينا أن نقصد ــ دون إسراف ــ إلى استخدام الكلمات الفصيحة التي تستخدمها الدَّارِجَة في تعبيراتها حتى تسيل بها دون حرجٍ، أقلام الكُتَّاب والأدباء والمؤلفين والدارسين، فَتَقْتَحِم الألف في الاستعمال الفصيح، وتزول شيئًا فشيئًا هذه الازدواجيَّة اللُّغَويَّة في وطننا العربي، وبهذا تستطيع الفصحى أن تُقَال من عثارها، وأن تحافظ على حَيَوِيَّتها ونشاطها ووفائها بحاجات هذا العصر في مختلف شؤون الحياة اليوميَّة(٤٣).

إن اللغة العربية هي أقوى لغات العالم قاطبة وأقدمها على الإطلاق ـ ولا أقول هذا تعصبًا، ولكني أنقل حقيقة بَدَهِيَّة ناصعة، وللأخذ بها ما يُبَرِّره مِن أدلةٍ هي مِنَ القُوَّة بِمَكَان، حيث لا تُنَال، ولا يكفرها جَاحِدٌ، إذ إن اللغات التي تزامنت حضاراتها مع حضارة العربية، كلها جارت عليها الأيام، فالفارِسِيَّة قد طُمِرت كاملة ثم أعاد المسلمون الفرس في دولة البويهيين تسجيل آدابها وانتعاشها، ورسومها بالخط العربي، وترجموا الكتب الفارسية عن العربية المترجمة إليها هذه الأعمال من قبل، أما التركية فقد تفرعت إلى مجموعة من اللهجات المتباينة واللغات المختلفة، فلأتراك الشمال اللهجة التركية القازانية، ولأُزْبِكِسْتَان اللهجة التركية الأزبكية، وهناك اللهجة الغربيَّة العثمانية. . وغيرها

أما الهندية فقد تشعبت إلى لغات عديدة من الكثرة بمكان، ومآل اللاتينية معروف، والقبطية والعبرية لم تبق لغة شامخة من المجموعة اللغوية الأصولية، التي كانت متسيدة للنشاط الحضاري للعالم في فترة مبكرة جدًا من فترات التاريخ، إلا العربية، متجددة، ومزدهرة، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى قد يَسَّر كتابه الكريم للذكر بلسان عربي مبين، وَيَسَّره، أي اختار له لغة سهلة مرنة جمالية الأداء، والعمق التعبيري فيها بالغ الجلاء.

الإحالات والتعليقات

١ - بارتولد: فلاديميروفيتش: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر (عن التركية)، ط ٥، دار المعارف (١٩٨٣)، ص ٦٢ (الكتاب وضع بالروسية، ونقله إلى الإنجليزية الشاهد السهروردي، "Mussulman Culture (1934) University of Calcutta"، ثم نقل إلى التركية بواسطة "أحمد أوران"، ونشره معهد الدراسات التركية، وأخيراً نقل إلى العربية)

٢ - عبد العزيز، عبد الحميد هلال (دكتور): النقد الأدبي الحديث: مذاهب وقضايا، مطبعة الأمانة (القاهرة ١٤٠٢هـ) ص ٦٩.

٣ - بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٦٢.

٤ - هذه المخالطة كانت مع الفرس في ريف العراق، ومع الروم في مشارف الشام، ومع الهند في البحرين، ومع القبط على حدود مصر، وفي بعض المذاهب التي كان يعتنقها العرب (بارتولد: ص ٦٢) وقد نقل لنا القرآن الكريم صورة حية متكاملة للمعاملة المتبادلة بين العرب ومصر من خلال "سورة يوسف" المجيدة، وربما كان (بارتولد) يقصد بمصر العليا جزيرة الأعلى من ناحية "الموصل"؟ وهب يكون المراد هنا حكم يوسف عزيز مصر عليه السلام، ورفعه أبويه، ومن ثم رفعه لشأن العرب في مصر، ومثله.

٥ - ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، ط المطبعة البهية، (القاهرة) ص ٤٨٨ (وكان أفصح العرب - إلى جانب قريش - الذين حافظوا على لغتهم، سليمة، لم يطرأ عليها لحن ولا فساد، وهم: هذيل، وكنانة، وثقيف، وغطفان، وأسد، وتميم)، ص ٣٧٩

٦ - حسين، محمد بن سعد (دكتور): اللحن في لغة العرب، مجلة الحرس الوطني (السعودية)، شوال ١٤١١هـ، أبريل ١٩٩١م، ص ٩٧-٩٨.

٧ - سكنت قبائل اليمن كلها، خاصة الأزد، وبني الحرث بن كعب، وهمدان؛ وخثعم في نجران - انظر: ضيف، شوقي (دكتور): العصر الجاهلي، دار المعارف (القاهرة) ص ١٣٣

٨ - رمضان، علاء الدين: مجلة اقرأ، العدد ٨٥١، (٢٦/ ٧/ ١٤١٢هـ = ٣٠/ ١/ ١٩٩٢م)، ص٦٩

٩ - المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٦٤م)، جـ٤، ص ٤٦.

١٠ - المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران: معجم الشعراء، تحقيق: عبد الستار فرّاج، (القاهرة ١٩٦٠م)، ص ٣٦٤.

١١ - باغر التركي: هو الذي طغى على (المتوكل على الله) ابن المعتصم بالله، من زوجته التركية (شجاع)، وقتله مع وزيره الفتح ابن خاقان، عام ٢٤٧هـ، وقد استعان «المستعين بالله» على قتل باغر هذا، ثأرًا، بقائده «بغا التركي» عام ٢٥١هـ

١٢ - الشامان، مسعد بن سويلم (دكتور): الترك في الشعر العربي حتى نهاية القرن السابع الهجري، مجلة الدارة، العدد الأول/ س ١٧، ذو الحجة ١٤١١هـ (الرياض ١٩٩١م)، ص ١٠٣

١٣ - المتنبي، أبو الطيب أحمد بن حسين: ديوان المتنبي، طبعة أمين هندية (القاهرة ١٩٢٣م)، ص٦٦

١٤ - الشمشاطي، أبو الحسن علي بن محمد العدوي: الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق السيد محمد يوسف، (الكويت ١٩٧٨م)، جـ ٢، ص ٧ (عن الشامان)

١٥ - عادي، أحمد منصور (دكتور): تاريخ الأدب العربي ما بين عهد المتوكل ودخول الفرنسيين مصر (٢٣٤هـ ــ ١٢١٣هـ)، ــ د. ت ــ (جامعة الملك فيصل الأزهرية بأسيوط، مصر)، ص ٣٨

١٦ - ديوان المتنبي، ص ٤٠٥.

١٧ - ديوان المتنبي، ص ٣٩٢.

١٨ - المرزوقي، محمد: عن محاضرة للمرحوم المرزوقي ألقاها بإدارة الأدب الشعبي في تونس (١٩٧٤م)

١٩ - تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٨.

٢٠ - تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٨.

٢١ - النقد الأدبي الحديث، ص ٧٠.

٢٢ - اللحن في لغة العرب، ص ٩٦.

٢٣ - وأعتقد أن خطر مثل هذه اللهجة أشد - وهي المُعْرِبة - على اللغة من اللهجات الملحونة نفسها

- (انظر: جواهر البلاغة، ص ١١ - عن: الدكتور العدلي محمد سليمان: مباحث بلاغية، (أسيوط ١٩٩١م) ط جامعة الملك فيصل الأزهرية - أسيوط، ص ٣٧)

٢٤ - حسين، طه (دكتور)، مجلة مجمع اللغة العربية، (القاهرة ١٩٥٥م)، جـ ١، ص ٩٩.

- والدكتور شوقي ضيف، يرى «أن النعرات الإقليمية تُجدّد من حين وآخر، تبرز حينًا ثُمّ تختفي، ويرجع الناس بعدها إلى التيار القومي العام، ومنذ الجاهلية ظلّت الأقاليم تتحدث لهجاتها المتعددة، لكنها ظلت حينما تتحدث اللغة العربية الفصحى وعاء لفكرها وثقافتها الدينية والأدبية، فالعربية الفصحى ظلت وستظل دائمًا اللغة القومية للعرب، ومستودع أفكارهم ومشاعرهم

ورؤاهم وأخيلتهم ومعارفهم، فاللغة العربية الفصحى تملك كل مقومات البقاء، والجهود مبذولة في كل اتجاه، وهذا كله مما يدعو إلى التفاؤل». عن ندوة «اللغة العربية في مواجهة التحديات» إدارة الحرس الوطني (الرياض ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م).

٢٥ - مندور، محمد (دكتور): مجلة الكاتب، العدد ٩، (القاهرة ١٩٦١م)، ص ٦١.

٢٦ - الجاحظ، عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، جـ١، ص ١٤٥.

٢٧ - باكثير، علي أحمد (دكتور): محاضرات في فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، (القاهرة ١٩٥٨م)، ص ٧٦.

- Wilkins, D.A.: Second - Language Learning and Teaching (1975) Edward - ٢٨ Arnold, London. ..., Look: (Language acquisition, p. 25 - 30) & (The Educational Contex, p. 43) & (The Secial Context, p. 47 - In; Environmental Factors).

٢٩ - أنطون، فرح: مصر الجديدة ومصر القديمة، طبعة مكتبة التأليف (القاهرة ١٩١٤م)- الصفحتان: الثالثة والرابعة من المُقَدِّمَة-.

٣٠ - جَرُّهم إلى ذلك واقع الازدواج اللغوي في البلاد العربية، (انظر: الزبيدي، علي (دكتور): محاضرة ألقيت مساء يوم [٢٨ مارس ١٩٧٤م] في مقر اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين- نشرتها فيما بعد مجلة «الكتاب»، ع ٦، س ٨، يونيو ١٩٧٤م = جمادى الأولى / الثانية ١٣٩٤هـ، ص ٨.

٣١ - انظر: كراملي، محمد صالح قاسم (دكتور): نحو رؤية جديدة في تبسيط النحو العربي، المجلة العربية، ع ١٠٧ - س ١٠، ذو الحجة ١٤٠٦هـ = سبتمبر ١٩٨٦م (الرياض)، ص ١٠٠. ولقد لعبت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الاليسكو) دورا كبيرًا في تنسيق الجهود المخلصة المتصلة بتبسيط النحو وتطوير اللغة.

٣٢ - الطيب، عبد الجواد محمد (دكتور): اللهجات العربية ودورها في الإصلاح اللغوي، مجلة الثقافة العربية، ع ١٠ - س ٣، أكتوبر ١٩٧٦م (بنغازي)، ص ٥٠.

٣٣ - هذا ما ذكره لي السيد زُمُّوري، في (القاهرة: ٢٧/ ٩/ ١٩٩٢م)، وأثق في أنه الأقرب إلى الواقع، بينما قرأت ما يخالف ذلك، وأُثْبِتُ نَصَّ ما قرأت مع ميل إلى ما ورد في متن الدراسة لموافقتها لواقع مماثل في مناطق أخرى من الوطن العربي، ولأننا نلمسها كثيرًا في مجتمعاتنا الإقليمية، يقول الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال (مصري): «الدَّارِجَة المغربيّة في غير المناطق الجبلية متقاربة بصفة عامة، وإن وجد اختلاف بينها، فهو كالاختلاف بين لهجات مناطق الصعيد، ومناطق الوجه البحري في الجمهورية العربية (المتحدة)، إلا أن هذا لا يشكل اختلافا

كبيرًا يسمح بإقامة لهجات مستقلة، وقد ساعد على ذلك أن المدن الكبرى في المغرب عامرة بمن يأتي إليها من كل فج، حيث نرى في مدن الشمال سكانًا قادمين من الجنوب، وقد عملوا جميعا على تقارب لغة الحديث فيما بينهم» (أ. هـ) بينما نجده اعترف قبل ذلك بما يُعَانيه من وراء جمع المادة، قائلاً: «وكثيرًا ما كُنْتُ أجِدُ صعوبةً في ذلك لغموض هذه الألفاظ [البربرية] وعدم تداولها في كل مكان، إذ ما يستخدم من الألفاظ عند قبيلة لا تجده برمته مستخدمًا عند قبيلة أخرى، وما يستخدم في منطقة جبلية لا يستخدم في غيرها من المناطق!».

- انظر: عبد العال، عبد المنعم سيد (دكتور) لهجة شمال المغرب.. تطوان وما حولها، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة ١٩٦٨م)، ص ٤.

٣٤ - لقد كان هناك من يدعو إلى العودة الكاملة للفصحى مع مداخل الستينات، وقبلها، في مصر، ما بين متشددين، متعصبين، وبين مندسين مستغلين، هدفهم المكيدة للغة العربية، وقد ساهم هؤلاء المندسون في رعاية غرسهم، فدعوا إلى العودة الإنقلابية إلى اللغة الأم (انظر: العيدروسي: نظرات في النِّزَاع بين الفصحى والعامية، ص ٦٤؛ - ملحس، ثريًا (دكتورة): العربية لغة الحضارة، (مجلة الكتاب، ع ٧ - س ٨، تموز ١٩٧٤م = جمادى الآخرة - رجب ١٣٩٤هـ (بغداد) ص ٨٢-٨٥) وأظن أن خطر هؤلاء - وقتئذ - كان أشد من خطر أولئك الذين انكشف عنهم القناع وافتضح زيفهم، وانتبهنا لهم مبكرًا، وتصدينا للرد عليهم والدفاع عن لغتنا العربية الخالدة، بدءًا من أوائل سنة ١٨٨٣م حينما دعا اللورد دوفرين البريطاني إلى محاربة العربية والاهتمام باللهجات العامية، ثم سار على نفس المنهج المهندس وليم ولكوكس سنة ١٨٩٣م، ثم المستشرق ولهلم سبيتا ١٩٠٢م، ثم وليام جردنر ١٩١٧ ....، وانتهاء بيعقوب صنوع، واسكندر معلوف، وسلامة موسى، ومحمود طاهر لاشين، وأنيس فريحة، وعثمان جلال....، وغيرهم، وانتهى الأمر بتصميم مركز اللغويات بجامعة «ميتشجان» صيغةً لِلُغَةٍ جديدةٍ عربيةٍ حديثةٍ جاهزةٍ للاستعمال، (الأخبار - القاهرية - في ١٢/٨/١٩٨٣م).

٣٥ - العقاد، عباس محمود: مجلة «الكاتب» (مصر) مايو ١٩٥٢م، ص ٥٣٦-٥٣٨.

٣٦ - محفوظ، نجيب: مجلة «صباح الخير» (مصر)، العدد السادس، دار روز اليوسف (القاهرة ١٩٥٦م)، ص ٥٠.

٣٧ - أجرينا تعديلات جوهرية على ما نقلناه عن الأستاذ العقاد ههنا، فيما يتعلق بالجزء الأول، حيث إن معناه لا يتفق مع تَوَجُّهَاتِنَا ومبادئنَا الفكرية، فقد جاء النص على النحو التالي: (إن هبوط الفصحى إلى العامية يقابله عامل آخر، هو ارتفاع العامية إلى الفصحى)، وإن كنا نُقِرُّ الجُزْءَ الأخير من هذا الرأي، إلا أنَّنَا نرفض جُزْءَهُ الأول، ووجدنا أنَّ التعديل فيه، خير من إهماله، وهذا ما دفعنا إلى إجراء هذا التغيير.

٣٨ - العقاد: مرجع سابق، ص ٥٣٨.

٣٩ - هناك من يرى أن نبتعد عن الألفاظ الفصيحة التي استعملت في الدّارِجَةِ، في الفصحى الحديثة (انظر، د. عبد الحميد هلال، مرجع سابق، ص ٩٩) وهناك من يرى أنه من الواجب علينا أن نعمد إلى مثل هذه الألفاظ (ونقصد إليها قصدًا) حتى نقيم ألفة بين المتكلم واللغة (انظر، د. عبد الجواد الطيب، مرجع سابق، ص ٥٠)، وإنني أذهب مذهبًا وسطًا، فالرأي الأول سيعود بنا إلى التّقعُّر، واللغة الجافة، غير المألوفة. أما الثاني؛ فإنه سينزل بالفصحى إلى مستوى اللهجة، لا العكس، وهذا ما نخشاه، نحن نستخدم الألفاظ الفصحى بطبيعة شديدة، حتى لو كانت مستخدمة في الدارجة، ولكن دون إسراف في استخدام هذا النوع.

٤٠ - أبو بكر، أسماء (دكتورة): الأدب.. وإحياء اللغة، مجلة الحرس الوطني (الرياض)، ع ٩٩ـ س ١١، جمادى الأولى ١٤١١هـ ـــ ديسمبر ١٩٩٠م، ص ١٠٦ـ١٠٧. ومن عمل الأدباء أسوق تجربتين معكوستي الاتجاه...، (الأولى): ترجمة الشعر الشعبي الفيتنامي إلى العامية المصرية (انظر؛ حداد، فؤاد: قال التاريخ أنا شعري أسود، وزارة الثقافة، سلسلة في المعركة، القاهرة ١٩٦٨م)، و(الثانية): ترجمة الشعر الأنثولوجي السواحيلي إلى الإنجليزية (انظر؛ al-hadhmy, Ali Ahmed, Anthology of Swahili Poetry [Kisanyiko La Mashairi], African writers Series - 192, H.E.B - London, 1977).

٤١ - الجاحظ، البيان والتبيين: جـ ١، ص ٢٤٠ـ٢٤١.

٤٢ - انظر؛ العيدروسي، عمر عباس: نظرات في النزاع بين الفصحى والعامية، مجلة «الكتاب» (بغداد)، ع ٨، س ٨، (أغسطس ١٩٧٤م = رجب شعبان ١٣٩٤هـ)، ص ٦٣ـ٦٧.

٤٣ - انظر؛ د. عبد الجواد الطيب، مرجع سابق، ص ٤٩ـ٥١.

The beginning of the Colloquial Arabic Language and an endeavour to desist it

The Colloquial Language in Arabic has appeared gradually owing to the politiccal, the cultural and the social changes that have occurred in the Arab nation since the advent of Islam. It is also due to the non-Arabs who converted to Islam. This language is considered a deviation from the classical Arabic because of the following factors:

* First: The Arabs have mingled with the other nationalities that embraced Islam and lived, worked, and intermarried with them.

* Second: The political and social deterioration of the Arabs has led the other countries to overrule them especially at the end of the Abbasid Empire.

Scholars of modern linguistic studies often face this phenomenon of the colloquial language. But they are certain that they can return to the classical language of the Koran. They are also certain that "the original Arabic will be the Language of all the Arab nations" as Dr. Taha Hussien Said. But there shouldn't be a revolution for this return. Time will give the chance for this change.

We just leave things as they go naturally.

Here in our research we are trying to explain the dimensions of our national call for setting up the Colloquial Language to return to its origin. Poets, critics and men of literature will shoulder this responsibility since this bilingualism that befell our Arabic Language has its. Serious danger on our usage of Arabic sciences and concepts. It also has its effects on Romantic Linguistics.

There fore we must share in the restoration of our mother tongue; the Classical Arabic.